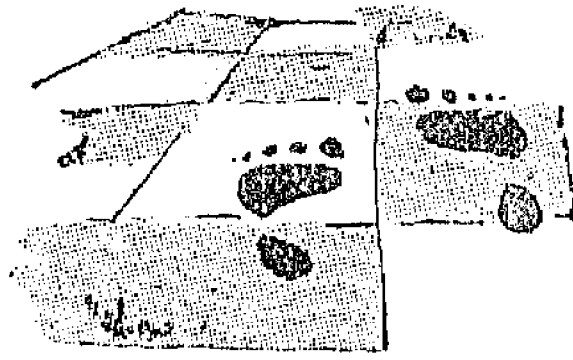




قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذاري الى  
بطل القصة — عمى ، وحامى — « طه  
السباعي باشا » لأنني لم أستاذنه في النشر  
راجياً ايام ألا يصدر بيانا يكذبني فيه ..  
لسبب بسيط .. هو أن الناس تعلم تماماً أنه  
ليس هناك أكذب في هذا البلد . . من  
بيانات التكذيب .

فمن بيت معاه ..

و القصة والعربة عائدة من الإسكندرية تنهب  
للقبراء الطريق الصحراوي نهياً ، والسائق ينتهز فرصة  
سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد السرعة إلى  
ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت  
تتأوى في طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق  
مصلحة المجارى ، ومن آن لآخر تعترض العربة علامات  
الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة في إحدى حفرات  
المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .  
ووصلنا أخيراً إلى البيت فى منشية الطيران .. متعبى  
الأعصاب منهكى الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة إلى باب البيت  
وأخذت أتحسس ثقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه  
المفتاح ثم دفعت الباب .. وبدأنا نتلمس طريقنا فى حذر  
وخشية ، وسمعت العم يقول :

— أكباس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسي  
الموجود أسفل السلم .. لقد وضعتها بيدي قبل السفر .  
وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكباس فى محلها الواحد  
بعد الآخر .

كان نزع الأكياس هو أول شيء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس في أسلاك الكهرباء فينتج عنه - لاسمح الله - حريق يودي بالبيت . . وكان ثاني شيء هو إغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس إلى محلها حتى أضاءت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة . وقبل أن أطفئ اللهب التي لا تحتاج إلى ضوءها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلاً في أنحاء البيت ، وهو يلقي عليه نظرة إعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها إحدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيراً قال وهو يهز رأسه في خليط من تعجب وأسف وغبطة :  
— أنظر . . لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعي أنا الآخر على أقرب شيء إلى وقلت موافقاً :

— أجل ! لا أثر للتراب .

— شهران . . والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب . . ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم . . مجانين ، مصابون بجنون النظافة . . إنهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، إنها عندهم هواية ، أو طريقة لإغاضتنا والتشكيل

بنا . . وإلا فما معنى تنظيف الشيء التنظيف ؟ . أتعرف أنهم  
في عز الشتاء يدخلون الخادم يومياً مجردل المياه لمسح  
الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم  
عن هذا الجنون عبثاً ، حتى انتهى بي الأمر إلى أنه ليس  
هناك وسيلة إلا بإزالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت إلى حملته عليهم — أو على الأصح  
عليهن — وأنا أو من مخلصاً على كل فقرة فيها .

وكانت هم . . أو هن . . هذه عائدة بالطبع على أهل  
البيت من النساء . أعنى زوجته وزوجتي ، أو بعبارة أخرى  
حماتي وابنته .

وكنا متفقين تماماً في مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين  
تماماً أن أهل البيت من الحریم مصابون — بلا جدال —  
بداء النظافة . . يؤيدنا في ذلك زوج الابنة الأخرى . .  
عديلى وابن عمى الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذى لم تعد  
له فى حياته إلا أمنية واحدة . . وهى أن يهبى الله له فرصة  
الاستمتاع بحرية الفوضى والقذارة ، والذى فكر فعلا فى  
أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظيفها زوجته ، وشقة يعيش فيها  
مستريحاً كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا — أنا والعم — أسبق منه إلى تحقيق هذه

الأمنية . . . وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والآتربة  
والقدارة .

كانت عودتنا من الإسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء  
بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق ما يقرب  
من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لتتحرر من قيود  
النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيش فى الدار فساداً . . . وأقول الحق ، أن  
العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساماً  
وأثبت أنه لا يشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والغباء  
— غبار .

لقد فاز علىّ فى سباق الفوضى ، فوزاً مبيناً . . . جعلنى  
أياس من الاستمرار معه فى ميدان السباق . . . بل جعلنى  
أكره — فى مدى يومين — الفوضى التى كنت أتوق إليها  
منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت إلى  
إنسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لآلم شعث  
ما فرق ، وأنظم ما لخطب وما بعزق .

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة . . . ولم يحاول  
أحد منا الخروج . . . فكلانا مبكر فى نومه . . . وزادنا التعب

رغبة في النوم وزيادة في التبكير ، فلم تدق الساعة حتى كان كل منا قد آوى إلى فراشه .

ومع ذلك . . . وفي مدى تلك الساعة التي قضيناها في الدار منذ الوصول حتى النوم . . أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة . . كدفعة أولى .

وفي الأيام التالية بدأ التفنن وإخراج الروائع والآيات . لم نكن نلتقي إلا في الصباح وفي المساء ، وقت الصحو أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار في مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر في الدار — ونحن على حال من اليقظة — إلا لمأماً . . ومع ذلك — ولا أدري متى ولا كيف — تمكن العم من إخراج روائعه وإشاعة الفوضى المثالية والتخريب النموذجي في أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب «التوسيع» أجد لزاماً عليّ وإحقاقاً للحق ، ووضعاً للأمور في نصابها أن أذكر ما قننا به من أعمال التعمير والإعاشة . كان أول ما فعلنا . . غير وضع أكياس الكهرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل الثلاجة وملء زجاجات المياه التي بها وشراء كمية من العنب والمانجه وصندوق بيبيسي كولا ،

ووضعها في الثلاجة على سبيل التجميد ، و خزن الزاد والزواد .  
وكان هذا الزاد والتجميد هو العامل الأكبر في إشاعة  
الفوضى في البيت ، والمادة الأساسية التي أعانت العم على  
رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر  
للأثرية . ولكن الذي حدث — وبعون من الله وبمساعدة  
العم — هو أننا لم نكد نستقر في الدار يوماً أو بعض يوم  
حتى وجدنا الأثرية تعلو وتتراكم . . وإذا بالحجرات قد  
أضحت أشبه بالخرائب .

وهكذا وجد من الأثرية الأساس الملائم . . أو « الباك  
جراوند » المناسب .

لقد كست الأثرية كل ما في البيت . . أعطته لوناً رمادياً  
مغبراً لا يكاد يستبين منه لونه الأصلي . . اللهم إلا من  
خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتي انتقلت  
أثرتها فاستقرت في أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى  
التي انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو  
الأرض ، فقد كان كل شيء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش  
في الصحراء .

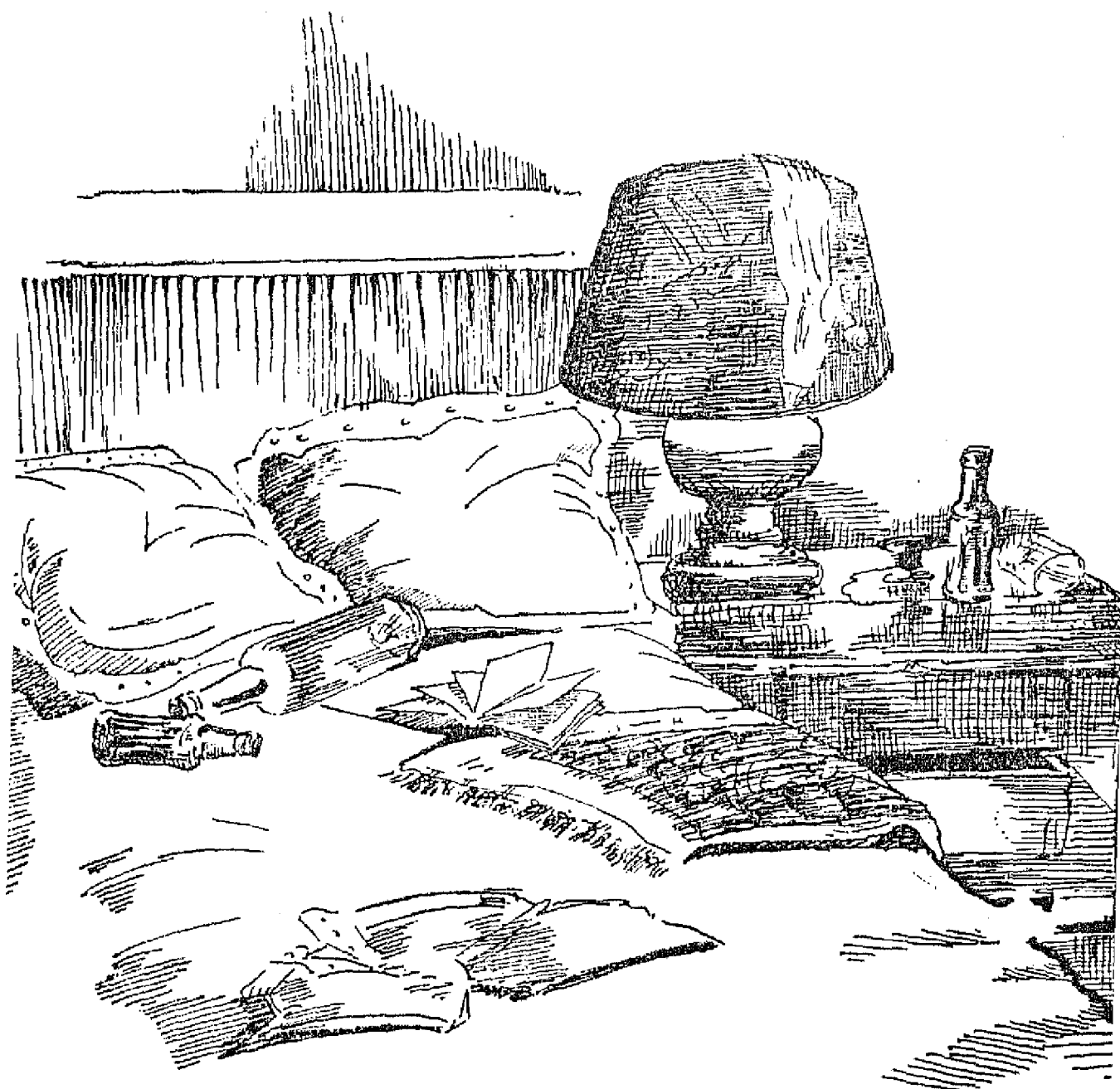
وفوق هذه الأثرية بدأ المنظر الرائع الآتي :

إحدى عشرة زجاجة بيبسى كولا فارغة مستقرة في كل مكان يخطر على البال . . واحدة فوق الفراش ، واثنان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ، واثنان في داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنان متدحرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلها جلسنا إلى المنضدة . . وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر في كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد . . أما غطياتها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين . أما الواحد الباقي فهو مازال محشوراً في فتاحة الزجاجات . . لم يفكر أحد في نزعها من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الإحدى عشرة زجاجة — أو الأحد عشر كوكباً — سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بذور وقشور وبقايا عنب عفن . . هذه الأطباق كانت من قبل مرصوفة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ، وبقيت هي دون أن تغسل . . سوداء « ملحوسة » لزجة .

تلك هي بقايا العنب . . تعاونها في إعداد تابلوه الفوضى والقذارة . . مخلفات المانجه . . ببذورها « المبدورة » في أنحاء





البيت كأنما قد انقلبت أرضه حقلاً لزراعة المانجه ، وبالقشور  
الملقاة هنا وهناك وبماء المانجه السائل في لزوجة على المنضدة  
والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات العجيبة  
تجد فردتي الحذاء والشراب .. مستقرة في فراقها الخالد ..  
ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة  
المتسابقة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة  
التي كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئاً فريداً .. كان لابد  
من أن تكسر ملة السرير — دون أن يفكر أحد منا بالطبع  
في إصلاحها — فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح  
إلا للدرجة والدألجة .. ويعلم الله كيف ينام العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة ..  
تحتاج إلى بعض الموسيقى لتكون تامة المعاني كاملة الإخراج .  
وقدم الموسيقى في هذا المنظر الفوضوي صنبوران  
للمياه .. صنبور تلفت جلده فأخذت المياه تنسكب منه  
النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لست  
أدرى ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه الناي  
أو صفارة الإنذار العاطلة .

هذا هو التأبلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب - وكان هذا من ضمن أعمال التعمير - بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش . وأخيراً انتهت أعمالنا التى حضرنا من أجلها إلى القاهرة وعز منا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحریم حتى نتشفى منهم وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى «طراوة» الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة الرابعة والنصف صباحاً وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئاً حتى لاأسبب له عطلاً فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر . . ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياه . . وأكباس الكهرباء .

وجهزت حقيقتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى بإحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحاً

استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ . . وسرعان  
ما حلقت ذقني وارتديت ملابسى . . وأصبحت على أهبة  
الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسى حتى آخذ كل ما أود  
أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب - بنسيانى حاجة ما -  
أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو إلى الحديقة فهز شجرة الجواقة وجمع ما سقط  
من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة . .  
ونزعت أكياس الكهرباء . . وأخذت أتحمس طريقى إلى  
الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت  
الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبي . . وهممت بركوب العربة  
عند ما صاح عمى :

— إنتظر . . لقد نسيت العصا .

وكان على أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب  
وأن أضع الأكياس وأصعد إلى أعلى فأحضرها له .  
ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض  
الخبيل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه  
هو الذى نسى . . رغم أنه حذرني من النسيان وعلمنى الحذر  
فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

— هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعي للعصا ..  
وأظن أنه يوجد غيرها في الإسكندرية .  
واتخذنا مجلسنا في العربة ، وأخذت في التحرك بعد أن  
تنازل عن العصا حتى لا يكون سبباً في تأخيرنا بضع دقائق .  
ونظر في الساعة وقال :

— الساعة الخامسة إلا ثلث .. موعد مبكر .. أظننا  
نستطيع أن نصل — بالراحة — إلى البيت في الساعة التاسعة ؟  
وصدقت على قوله بقولي :  
— أظن ذلك إذا لم يحدث عطل .  
— إن شاء الله لا يحدث شيء .

وكنا قد بلغنا — عند ما قال قوله هذا — بيت مكرم  
باشا وبينه وبين بيتنا ما يقرب من محطتي ترام .. ولكنه لم  
يكمد يتم قوله أو على الأصح تمنيه ودعوته حتى صاح كأنما  
قد تذكر أمراً هاماً :  
— لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتمهل السائق بعض الشيء .. وتوقعت أن يأمره العم  
بالعودة ، ولكن الفكرة دارت في رأسه مرة أخرى ..  
وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر الشيكات .. وبين  
محاضراته عن ترتيبات السفر ، وعدم النسيان ، وعدم الرغبة

فى التعطيل . . وأخيراً صاح بالسائق :

— سوق على طول . . لست فى حاجة إلى الدفتر . . إن  
معى من النقود ما يكفى ، ولا أظننى سأحتاج إليه .  
وهكذا مرت سلومة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت  
العربة فى طريقها إلى شارع الهرم . . وحمدنا الله على أن  
ما نسى كانت أشياء بسيطة . . ولم يكن هو — على حد قوله —  
فى حاجة إليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلى . . ووصلنا إلى ميدان  
الإسماعيلية ، وعبرنا كوبرى قصر النيل ، وقد اضطجعنا  
فى مقاعدنا مستريحين هائنين ، نحسب فى أذهاننا الساعة التى  
سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة إلى حد أنها ستفاجئنا  
الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل إلى الأمام . . ويصيح بلا تردد  
ولا تفكير :

— موسى . . دور ، عد بنا إلى البيت .  
وتلفت إليه فى دهش شديد ، متسائلاً عما حدث . .  
فأطرق برأسه ، وقال فى يأس :  
— لقد نسيت حقيبة ملابسى .